قصة الشهر
من الجزائر

المنسِّفون .. والثورة العظيمة!

بقلم : مطاع صفدي

— إنهم ينسفون الحي الشمالي ..

قال ذلك ابن سلمان من خلال الدوي البعيد الغباري. فلقد استطاع بكلمته المختصرة هذه أن يعلن اسم ذلك الحطام المرعب الذي هدر في اسماعنا وزعزع كياننا ، بينما كان كل قائم ينهار ، ويتحول كل شيء الى ركام كامد ، وعجاج من الغبار الخانق ، يتصاعد الى عنان الأجواء ، فيلوث صفاء السماء الجامد -، الصامد بزرقته كقبة من الرخام ، أو كبلاطة فوق .. الأرض القبور . إن البيوت هناك ، في الحي الشمالي ، تتقوض ، والجدران التي جمعت فيما مضى الناس ، أفراح الناس ، ضجر الناس ، نوم الناس ، همس الناس عما يأكلون ، عما يحبون ، عما يخافون ويتحدثون ... الجدران والسقوف وكهوف الإنسان ، وتلك الأشباح وأشياء الأشباح ، وتفاهات الأدوات ، وما هو فوق ، وما هو تحت ، وما هو الى جانب ، وما هو مرصوف أو مكدس أو معلق أو مخزون. الشيء القديم ، او الشيء الجديد ، والمنسي والشاخص ، المهمل والقريب ، لعب الأطفال وكتب الكبار ، وطعام الأفواه المفتوحة ، وكل شيء يمكن أن يوجد في بيت وأن تكون له علاقة بانسان البيت ، وأن يكون ملك رغبة ، رمز كرذى ، واسطة استعمال ، آلة سيطرة ، سريراً للراحة والأحلام ، مقعداً للتأمل والخمود ، مكتباً أو مكنسة ، أو قماشاً أو صحناً أو كوماً من الموجودات الصغيرة — هي الآن بدون فائدة ، لااسم لها ، ولا صلة لها ولا مكان . لقد رجعت خاماً ، ولم يبق لها شكل ولا سيد . كل هذا أضحى كوماً . واللحم والتراب . واللحم والأحجار . واللحم والحديد . واللحم والعدم في سديم الكوم .. وألوف الحريات ، وألوف الكرامات ، وألوف الآمال ، وألوف البراءات .. قال عنها كلها ، ودون أن ينسى منها طفلا أو حجراً ، ابن سلمان قال :

— إنهم ينسفون الحي الشمالي ..

وسمعت إعلانه الوجيز ذاك ، وأنا قابع بالقرب منه على أرض حجرة من بيت لم يهدم كله بعد . سمعت الرصاص والقنابل وكتل البيوت والبشر وهي تسقط وتكوم ، تسقط وتغبر ، تسقط وتزول في سكون الأتربة . وكانت حجرتنا ثقباً كبيراً في الأرض . لم تكن تطل على الزقاق إلا من خلال بقية نافذة يأتينا منها الغبار وقبس النور المغبر . وكنا نحن خمسة ، ممددين نصفنا على الأرض ، ونصفنا العلوي لصق الجدار . كنا نؤلف شبه زوايا قائمة بين الجدار وأرضية الغرفة ، نصف ساقطين ، نصف واعين . كأننا في جلستنا تلك نشبه ذلك الصف الطويل الذي مررت به منذ أيام . صف من المعدومين رمياً بالرصاص وقد جلسوا جلستنا هذه بين عواميدهم والأرض . كانوا ميتين لا يتحركون . وأما نحن فلم نمت بعد ولا نزال نتحرك في خشخشة أو نحنحة ، تغمرها ضجة الانهيار الآتية من الحي الشمالي .

وقبعت .. وخمد تدريجياً كل شيء كان يقع وينهار . وجاء ذلك السكون الطويل المربد . وحاولت أن أتكلم . فإذا بصوتي يخرج عالياً ، يقعقع في نشاز نحيل :

— معك سيجارة ؟

لقد كنت أريد سيجارة بأي ثمن . ولست أدري لماذا كان يحملق بي الخمسة القابعون هنا . كانوا أربعة يحملقون بي .. وكنت الخامس الذي يحملق بي كذلك .. وأحس باستمرار أننا خمسة غرباء . وأنا لا أعرف إلا أن لكل قابع هنا اسماً يمكن أن أدعوه به ، إذا ما دعتني الحاجة الى هذا ، ولم أفعل ذلك حتى الآن . إلا أنني دعوت أقربهم ابن سلمان . ومع هذا يقال انه قد حصل بيننا تعارف ما عندما وزعونا منذ عشرين ساعة على البيوت . وكان أن اجتمعنا ، هؤلاء الخمسة ، هنا . وقبعنا هكذا منذ عشرين ساعة . لقد كانت الأوامر أن نوزع على البيوت و أن نقبع في أقرب غرفة الى الأرض ، وأن .. ننتظر .

ومد ابن سلمان يده الي بالسيجارة ، وأشعلتها تحت ياقة معطفي ، وقبضت عليها بكلتا يدي أخفي بصيصها الأحمر . وقال بدون لهجة ما :

— ولكن ألست ظمآن ؟ .. الدخان ليس مما يطفيء الظمأ .

إنه يعطف علي . إنه يشركني قليلا بنفسه . لقد خمن ولا بد أنني ظمآن .. ظمآن للماء مثله ، فأراد أن ينصحني ألا أدخن حتى لا يزداد عطشي . أترى يمكن للمرء في مثل هذه الساعة أن يحس بظمأ الآخر .. نعم ! إن الينابيع وجدت للجميع ، كذلك الموت للجميع . وها نحن الآن جمع ما . رغم أن لكل فرد منا جسده الذي مدده بأسلوب يشبه أسلوب الآخرين ، ولكنه يختلف عنه بعض اختلاف . وبيني وبين ابن سلمان انفراج مسافة ما . اننا لا نلاصق بعضنا . غير أننا كلنا يستمع الى الانهيار ، وكلنا ينتظر .

وأعود لأقبع وأحس مرة ثانية ، رغم الظلمة المشفقة في جو الكمين ، بأنهم يحملقون بي ..

ما كنت لأعبأ بأن يحملق بي أحد منذ أتيت أرض الدماء هذه. والواقع أنني أعددت نفسي ألا أثار كلما حدجتني أنظار الاستغراب أو التساؤل أو الجمود أو الحذر ، وأنا ألاقي شخصاً أو أشخاصاً جديدين من بين عمالقة ارض الدم . لقد سمحت لهم أن يسبروني بالشك ، ليصلوا الى الإيمان بي.

لقد انتقلت من معسكر الى آخر ، من مكان الى آخر ، ومن فرقة لفرقة . وفي كل مرة كان علي أن أجابه غرباء ، وأن اتعرض لنظراتهم ، ثم لحبهم والفتهم . وتعدد انتقالي ، وكثرت المهمات التي أرسلت لإنجازها مع كثيرين غيري ، وكانوا لايسمحون لي إلا أن أقبع في الخط الورائي من كل مهمة. فأعود

«الى رفاق لي لم يزالوا في أرض الغبار - اقدم لهم "هذه" من ارض الدم»

بالقتل وبأخبار المعركة .

عندما تستقبلني فرقة جديدة ، كانوا ينظرون الي أطول مما أحتمل . وتكون الفهم فيما بعد أكثر مما أريد ، وحبهم أشد مما أطيق وأعرف عن الحب . والقيادات كانت تعرف عنا الشيء الكثير فلم تكن بحاجه الى أن تسألنا . وأما نحن الرجال العاديين فليس لنا أن نهتم بشخصية كل واحد منا وبأحواله الخاصة أو الصفة التي يحملها قبل أن ينضم إلى عمالقة أرض الدم . كان كل فرد منا يعرف عن الآخر ما هو عليه الآن .. وهذا أمر لا يدعو للسؤال والاستجواب.

ولكنني في هذه اللحظة تستيقظ بي رغبة ملحة عنيفة لأن أعرف كل أحد هنا ، كل منتظر صامت مثلي ، وكان أن طلبت سيجارة من أقربهم . وسألت سؤالا آخر :

– ترى متى يصلون إلى .. هنا ؟

لقد كانت أكثر المهمات التي اشتركت فيها لا تتطلب أن أتنفس مع آخرين طويلا ، وأن أحس بهم كل لحظة ، وأن أنظر إليهم باستمرار ما دام ليس أمامي إلا هم .

وكأن ابن سلمان قد شعر بأنني لا أقصد الجواب تماماً . فقال مستطرداً :

– أتدري أن هناك شاباً آخر من الشام ؟ لقد دخل البيت المقابل .. أعني أنه من جنوب الشام .. من حيفا .. انه الرئيس هناك . لقد سمعت أنه كان حدثاً صغيراً آنذاك ، إبان غزو فلسطين ، فلم يحارب .

وهنا تململ الواحد البعيد في نهاية الحائط وقال بصوت ضخم .. بدون لهجة كذلك :

– أذكر انني اشتركت معه في معركة منذ أكثر من شهرين . كان قوياً عنيداً لا يعرف إلا إنجاز المهمة . وقد علمت منه أنه شهد إفناء عائلته بتمامها من قبل اليهود .. قال انه انتظر طويلا حتى فتحت جبهة عربية جديدة.. نسيت أن أقول انه فقد إحدى عينيه في تلك المهمة التي اشتركت معه فيها . وقد طلب الرئيس منه أن يخدم في المراكز .. ويبدو أنه أبى .. فها هو كما تقول (موجهاً كلامه لابن سليمان) في البيت المقابل .. معنا

وحدجني آخر وقال بلهجة خشنة :

– إنني أتساءل أحياناً لماذا لا يأتون جميعهم إلى هنا ؟ ..

وقاطعه ابن سلمان :

– ومن قال لك أنهم ليسوا هنا ؟ ..

فأجابه :

– لا تهذر ياهذا .. أعني لاأريد مؤتمراتهم وخطبهم ومظاهراتهم وتبرعاتهم .. إنني أتخيل أن كل شيء هناك يجري على ما يرام . . إنهم بعيدون أكثر مما ينبغي .. وأخبارنا لا تصلهم إلا عن طريق محطات العدو وصحفه ..

وكان الشبح الآخر القابع بقرب ابن سلمان من الجهة الثانية يقول فيما يشبه الذهول :

– إننا وحدنا .. إننا وحدنا ، وسنموت وحدنا ..

قال ذلك بينما كان خيالي يلوك قول الآخر «كل شيء على ما يرام هناك» . كنت أحسب أنني تخلصت من كل (العالم) الذي يعيش على ما يرام (هناك) . وأنني لست مسؤولا بالتالي عمن يثري في قصور أبي رمانة ، وعن فتيات يرقصن المامبو ، ويسبحن في بحرة بلودان ..

أنا لا أعرفهم هناك .. جحافل الشباب اللاهي في الشوارع ودور السينما ومقاهي الكسل الدبق . ولكن هذا الآخر حشرني دفعة واحدة مع من هناك ، من الذين يمثلون التأثر والنواح والثورة المجعجعة بالخطب والشعارات .

واشتدت ظلمة الكمين ، وخبا البصيص المغبر الذي كان يصلنا بالزقاق . وكانت السيجارة قد احترقت حتى عقبها . ولم يعد أحد يتكلم . ولكن ابن سلمان كان أقرب الجميع إلي . وكنت أحس بأنه يراقبني . وأنه يستطيع أن يدرك كل خاطر لي ، وأن يتابع كل صورة تمر في خيالي .. مثلما كنت أفعل تماماً عندما كنت أرنو إلى أبي وهو منبطح على صدره قرب باب الشرفة يستمع إلى أوامر ثلة من الفرنسيين في سيارة خضراء قاتمة .. كان ذلك منذ أكثر من عشرة أعوام ، عندما كانت دمشق كلها بدون أبي رمانة ، وبدون خطب ومسارخ ، عندما كانت صامتة تستمع إلى صرار الرصاص والمدافع وتنتظر أن تنسف حياً بعد حي .. كان أبي لا يملك إلا أن يصرخ بي : « حذار ! إخفض رأسك.. لا تسر واقفاً .. هكذا يجب عليك أن تفعل .. وأن يفعل كل أولئك المغفلين من صبيان المدارس الذين ملأوا البلد ضجة وصراخاً في مظاهراتهم الخائبة .. حتى ظنوا أنهم بصراخهم ذاك يخرجون المدافع من بلادنا ويسحقون القلاع من على هضابنا.. انظر ، إننا لا نملك إلا أن نزحف على بطوننا في بيوتنا .. وأن نموت من الجوع والرعب وراء أبوابنا المغلقة » .

وعند ذاك أدرت ظهري إلى ابن سلمان ، ولكن هذا ما لبث أن مد يده وربت على كتفي . لقد كان يريد أن يعتذر بطريقة ما عن زفاقه . ولكنه لا يستطيع التعبير كما أستطيع أنا .. أن أتابع مثلا إهانتهم لي ، ولكن هل هذه إهانة عندما يقولون لي « إنهم يعيشون على ما يرام هناك » . وأنا .. ألست بينهم الآن ؟ وكيف يمكن أن أعيش الحياتين معاً : ما يرام منها وما لا يرام ؟. صحيح أنني كنت هناك مرة ، ولكني لم أعد أمت بصلة إلى أي كان هناك . ! إنهم مجرد ضجة غبراء خلفتها . ورائي .. في أقصى مكان .

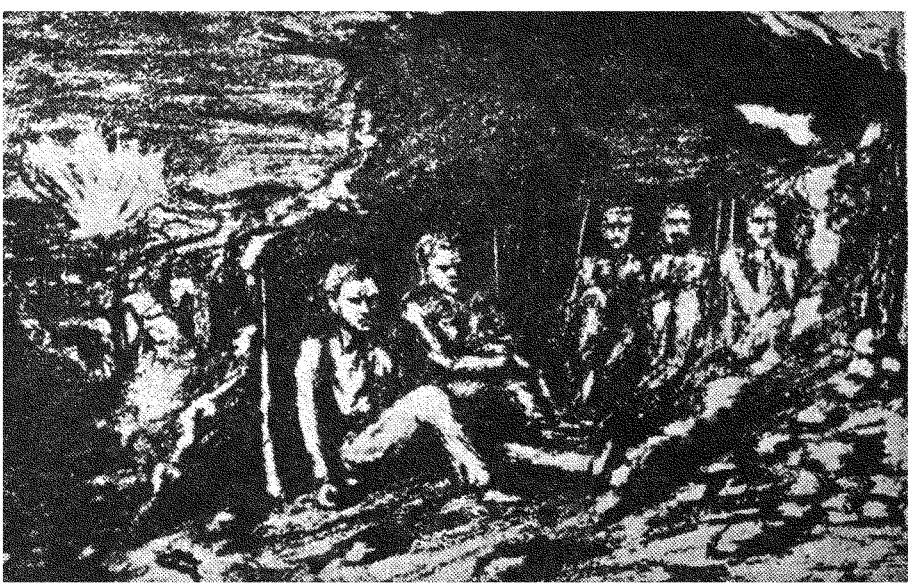

ولكن ابن سلمان ما زال يربت على كتفي . إنه لا يصدق . إنه لا يقنع أن يكون جسدي كله هنا على مقربة منه يستطيع طيلة الوقت أن يتجاور معه . وكنت أحب لو أدور فجأة إلى ابن سلمان هذا وأخاطبه مباشرة قائلا :

– إستمع إلي جيداً يا ابن سلمان .. صحيح أنني كنت يوماً مع

بدمشق . وأنني كنت واحداً من هؤلاء الذين يعيشون على ما يرام .. واحداً من الذين كان لهم أب وأم وعمل محترم وأصدقاء وخطيبة ..

وشعرت أنني لن أستطيع أن أتابع أكثر . إن مثل هذا الإبراز لأشخاص الماضي وأشيائه وأبعاده ليس أمراً سهلا يمكن أن أنجزه ببضع كلمات ، ربما لن يفهم منها ابن سلمان أو غيره من القابعين هنا أي معنى .. معنى خاص بي ، يوجد بوجودي ويزول بزوالي . أليس لكل الناس أهل وأصدقاء ونساء ؟ أي هذا شيء غريب ؟ أي هذا ما يمكن أن يشعر الآخرين حقاً بشخصيتي ؟ أبهذا يمكنني أن أدافع عن نفسي ، وأن أبرز كما أنا ؟ أريد أن أقول لابن سلمان ان لي قصة خاصة ، ان لي وجهاً وملامح لا يمكن أن تعبر إلا عني أنا . أريد أن أحكي له ما يجعله يكف عن ملاطفتي والحذر مني في الوقت نفسه . لا أود اهتماماً خاصاً . لا أود إلا ان أكون كما أنا ، بالنسبة لي وبالنسبة لهم أيضاً .

وحتى تلك الصبية الأرجوانية ذات الثياب العسكرية ، والشعر الأسود القصير . تلك العاصفة من النظرات النارية والابتسامات القاسية والحركة الدائمة الفائضة عن روح التمرد والاشتعال والمغامرة .

لقد ظلت تنظر إلي أكثر وأطول مما نظر إلي الآخرون .. وأعنف ، ذلك العنف الساذج الملتهم لموضوع دهشته ومفاجأته .

كنت أينما تجولت عند المساء بين صخور المعسكر الجبلي تطلع علي وراء صخرة أو خلف منحنى وترمقني عاصفة العيون . . . وقليلا قليلا رافق عينيها فمها القرمزي بشبه ابتسام .. تطور حتى انقلب إلى قهقهة عندما راحت تتفرج علي وأنا أدرب على الرمي والأعمال العسكرية . كنت شيئاً مرتبكاً ، كطفل يعبث بأدوات أثقل وأضخم منه .

واكتشفت فيما بعد أن هناك عدداً لا بأس به من الفتيات في المعسكر لا يفترقن إلا بصعوبة عن الرجال .

ولم تكف عائشة عن ملاحقتي ، عن مراقبتي ، عن السخرية بي كلما أوقعتني التجربة الجديدة في مواقف محجلة مربكة .

وفي إحدى الأمسيات ، وكان يحلو لي الانفراد بنفسي على صخرة مشرفة على السهول الصحراوية أرقب فيها النور الشاحب تمتصه الشمس الغاربة في بيداء ليبيا . كان المنظر عميقاً بعيداً ، يلفني بالرهبة . ويزيد من وحشتي القاسية الموئلة . واكتشفت ان عائشة ترقبني كذلك من على صخرة قريبة . ووجدتني ألتفت اليها وأرمقها بعيني طويلا . وكنت من قبل لا أواجه الأنظار مطلقاً حتى حاولت أن تنزل من على الصخرة وان تتلاشى وراءها . ولكني ناديتها . ودهشت الفتاة ، واتجهت نحوي بصورة آلية . ولما دنت من مجلسي .. انفجرت وكأني كظمت غيظي كله الذي عملت على إنمائه في جذور نفسي كل العيون الجامدة المسلطة علي ، لأقذفه في وجه هذه الأرجوازية العابثة :

– هل يمكنك أن تقولي لي ما هي الأعجوبة التي أمثلها أمامك ، أمامكم كلكم ؟ .. أمن الغريب بل المخيف أن ينضم اليكم رجل من أقصى الشرق العربي من دمشق . ألسنا جميعاً شعباً واحداً رزئ بخطب واحد ، نفتح له كل يوم جبهة من طرف الى طرف آخر ؟ إسمعي يا هذه وقولي لقومك إنني لست جاسوساً ، ولست طفيلياً ، ولست مجرد هارب من بلادي . لقد جئت اليكم بمحض اختياري ، إن لي رسالة ههنا أقضيها بين ظهرانيكم ..

وسكت أخيراً وكنت أتوقع أن تعجز الفتاة عن فهمي وأن تدير ظهرها الي وتنصرف . ولكنها قابلت غضبي بغضب آخر حلو جامح :

– أطمئنك يا استاذ أنك لست أعجوبة . ولسنا هنا جماعة من البسطاء السذج الذين يرون غريباً لأول مرة . إن الناس لا ينظرون اليك كما تعتقد ، إلا لأنك أنت أول من ينظر الى نفسك . إنك تراقب سكناتك وحركاتك . إنك لاتسلك بشكل حر وطبيعي . لكأنك انقسمت الى شخصين .. كأنك إنسان مصنوع من آلات تتحرك بقوة مفتعلة خارجية .. بقوة الكهرباء أو البخار مثلا .

– نعم أنتم السبب . إنكم أفقدتموني عفويتي بعيونكم الجامحة هذه .. لاتنسي أنني أعجوبة .. موضوع فرجة دائمة .

وانطلقت تحدثني عن نفسي ، تستعير احياناً بعض العبارات والكلمات الفرنسية . ولم أعد أعبأ بما تقوله عني بقدر ما جذب اهتمامي فيها تلك الغزارة من الثقافة والانفعال . وعرفت فيما بعد أنها قد درست في السوربون ، وأنها مجازة في الحقوق من هناك . وكان ذلك بمثابة درس لي ، فتعلمت منذ ذلك الحين ألا أقف فقط عند الزي العسكري البسيط وحياة الشظف البادية على كل إنسان هناك . لقد اختفى وراء كل هذا .. المحامي والطبيب والفلاح والتاجر والصحفي والمعلم والعامل ، وخضعوا جميعاً لقيم جديدة تتسلسل كلها من مفهوم صريح بسيط عن التضحية والبطولة .. لقد كنت بحاجة الى صديق . رغم أنني خرجت من مدينتي وبي تصميم جازم أن أنصرف بكليتي لإختياري الجديد ، وأن أتحمل عبئه كاملا دونما حاجة الى عزاء صديق أو محاورة رفيق أو الاستئناس بإنسان آخر .

ولكن عائشة قد فرضت نفسها علي . وجعلتني أرحب بلقائها كل أمسية تقريباً عند صخرة الغروب هذه ، نتحدث في السياسة العالمية وشئون الإنسان والثورة والانقلاب العربي ، ونعلق على أخبار حربنا . لقد كانت دائماً ذات منطق سليم وحدس مخلص ، تستعين بهما معاً في كل حديث . ولم تكن تقول شيئاً لا يشع من قبل وجودها كله . ولم تكن تعتمد في كلامها على تكآت تستدعي شك السامع أو انتباهه . إنها تجري كسيالة من الموسيقى الفطرية النضيرة ولا تنتظر من السامع الإعجاب أو التصديق بل مجرد الانفعال الطبيعي بصدى كلماتها وإشاراتها الخصبة وملامح وجهها الأرجواني ، واهتزاز جسدها ضمن أوضاع تصلح كلها إطارات لجسم حي فني ، يتعبده فنان أو مثال عبقري .

ولم يكن لي إلا أن أرقبها وأن أنساق في تيارها . وأن أعب من ذخرها .

واندفعت أنا مرة الى الحديث ، الى صميم الحديث الذي طالما تاقت روحي إليه ، ولم تكن ثمة مناسبة طبيعية توصل إليه . قلت في لحظة صمت وتأمل لأشعة الغروب المختلطة برمال الآفاق الصفراء السجدية :

– عائشة .. أود أن أبقى موضوع احترام لك ، وإن كنت أزمع الآن أن أفضي إليك بشيء . لا ريب أن عواطفنا قد أصبحت تتعدى حدود الصداقة والزمالة ..

وياله من وجه ، وياله من حب عظيم سكب ملامحها فجأة بصورة أخرى ، بعث بنفسي عبادة الحياة لدرجة الموت .. للفوز بأعظم موت بين يدي هذه الإنسانة التي جسمت لي مرة واحدة نبالة القضية الخالدة التي يحياها محبون ثائرون :

– أعلم يا حبيبتي أنه لا يحق لنا مطلقاً .. قد يعمل الحب أحياناً ضدنا .

– لا يحق لنا .. هذا صحيح . الحب والموت صنوان .. قد يجتمعان ، ولا حرج أبداً أن نكون نحارب لأننا نحب ، بدل أن نكون نحارب لأننا نكره أو نحقد ..

– عائشة ، أشعر الآن أني أطلبك أنت وحدك ، او كأن قضيتي ستنحرف نحوك . إني أخاف عليك .

– اولست أخاف أنا عليك ؟ .. ألم نخف يوماً على أمتنا ، ألم نخف على كرامتنا أن تسحقها العبودية ، ونخف على إنسانيتنا أن يحيلها الغاشمون الى حيوانية صغيرة .. ألم نخف ، ولأننا خفنا شهرنا السلاح واعتصمنا بالصحاري والصخور ؟ ..

ولكني لم أزل أخاف عليك يا حبيبتي ، وأخاف أن تبكيني يوماً ، وأن

أتحول بالنسبة اليك .. الى ذكرى والى ماض من العدم والحسرة . أواه يا عائشة .. وحدك من يعرف كيف يتآخى الحب والثورة والدم والموت . أود لو أنني أعرف أنا أيضاً هذا التآخي ..

ابن سلمان مازال يتربص بي .

ابن سلمان يدري أنني لست وحدي تماماً وجهاً لوجه أمام الدمار . إنه يريدني أن أكون الفريد تجاه الموت ، ابن سلمان خلفي بجثته الكبيرة . أبن سلمان يتنفس ببطء ثقيل قرب اذني . ابن سلمان رغم أنه رئيسنا جميعاً هنا ، ولكنه يرأسني الآن وحدي من دون الآخرين . إنه يحب أن ينظر الي فقط . يحب أن يربت على كتفي . يحب أن ينشغل بي وينسى الآخرين . ألا أبدو غير عادي .. أشبه بالمريض .. وعلى من حولي في أي مكان أن يعنوا بي ؟

في أي مكان هنا أو من قبل في المعسكرات ، ومن قبل بدمشق . في المعسكرات لم يرحبوا بواحد من الخمسين رجلا الذين وفدوا معي من المدينة ، إلا بي . ولم يجامل قائد المعسكر أحداً غيري . ثم أفردت لي غرفة خشبية خاصة . كانوا يعلمون أنني مدرس من دمشق وأنني تركت كل شيء لألتحق بحرب التحرير في الجزائر . لقد كان القائد لبقاً الى درجة غريبة ، ولكنه سألني بابتسامة حلوة :

– ألم يكن بوسعكم أن تخدمونا وأنتم هناك .. ماذا أقول لك يا أستاذ ؟ لقد اتيت الينا ، وهأنا لا أملك بندقية زائدة أسلحك بها . كنت أود لو أنهم يرسلون الأسلحة .. الأسلحة يا سيدي : هذا ما ينقصنا فقط .. وأجبته ببساطة ساذجة :

– ولكني يا سيدي لم أكن أملك ببلدي بندقية .. إنني أملك نفسي فقط ، وقد جئتكم بها . ولا تظن أن هذا شيء نافل . لقد كان من البطولة حقاً أن أملك نفسي هناك ، وأن أستطيع تقديمها اليكم .

وفكر القائد . وكان له وجه حازم . كان له وجه حقيقي . وتابع :

– ما دمت مدرساً .. أيمكنك أن تعد بعض المحاضرات حول القومية العربية والثورة تلقيها على الجنود ؟ ..

فصحت بلهجة أدهشتني أنا نفسي :

– لقد جئت هنا يا سيدي كيلا أقول شيئاً ، لن أفتح فمي بكلمة واحدة . لا أريد أن احاضر وأن يستمع الي الآخرون . أتدري شيئاً يا حضرة القائد ؟ . إن بدمشق وحدها أكثر من ثلاثين صحيفة وأكثر من عشرين نادياً ثقافياً وجمعية وأكثر من عشرة أحزاب وعصابات .. وفي كل بيت وحانة ومقهى ودكان مذياع . إنها كلها تتكلم ، وتتحدث في موضوعات الساعة . ولكن يظل كل شيء هناك في مكانه . إن القارئ ينام ويحلم والسامع ينظر ولا يسمع . والجميع في ثورة منابر وصحف وإعلانات وقاعات .. وتظل المقاهي تتسع لمئات الأشخاص ، والشوارع لآلاف المتسكعين ، والحانات لعديد السكارى . إن شوارع مدينتي تزدحم بواجهات الصحف والمطاعم والملاهي . ولقد لاحظت في الآونة الأخيرة أنه كلما رخصت الدولة لجريدة جديدة ، افتتح تجار الأكل مطاعم اخرى .. ومع ذلك لماذا أحاضر بالقومية العربية وبالثورة هنا .. هنا بالذات ؟ إننا نتحدث بمثل هذه الأمور في الجمعيات والأحزاب التي تغص بالشباب المتأنقين والفتيات المتبرجات .. وسيدات المجتمع الأدبي والثقافي ، أو بالمراهقين والنفعيين وتجار الشعارات ..

وأما أنتم .. أنتم هنا فإنكم تحاضرون علينا جميعاً برصاصكم . لقد أتيت من هناك لتكون لي بندقية .. وحقيقة واحدة .

واحتار القائد بأمري .. ولكنه قرر أن يعدني لأن أكون جندياً .. بطريقته الخاصة التي جعلتني دائماً في الخط الخلفي من كل مهمة ..

* * *

بهدم السكون المربد بتفجرات هائلة متتابعة كأنها تنبعث عن بعد عشرة أمتار من مكمننا هذا . وقال مرة ثانية ابن سلمان يسمي هذه الأصوات :

– جاء دور الحي الشرقي ..

وظل يربت على كتفي وهمهم بصوت منخفض :

– إنني واثق أنك لست خائفاً مما يحصل الآن .. ولكنك خائف من عدو مجهول .. أين هو يا ترى .. إنني ألمحه في نفسك .. إنك تنظر الى وراء بشكل ما ، لا تحتج يا صديقي .. أعرف أن لكل أنسان في الجبهة أسلوبه الخاص في أن يلتفت الى الوراء بصورة ما .. ولكنك أنت تهتم بمن خلفك أكثر مما يجب .

ولم أجبه بحرف . لقد كنت حقاً في الخلف من كل ما هو راهن بارز هنا : انا الآن لا يفارقني وجه رجل لا يتكلم .. من خلف من أقصى دمشق . لقد كان في مدينتي رجل صامت يجلس الساعات الطويلة كل مساء وراء مكتب تغمره طبقة غبار وطبقات من الصحف والرسائل من كل مكان . يجلس ويصمت . يقرأ ويصمت .. لكأنه الحقيقة التي لا تعرف كيف تعبر عن ذاتها . كان ذلك الرجل يدخل عليه بين يوم وآخر شاب متأنق متحمس . ويجلس بقربه .. وينفعل . ولا يدري كيف يحدث هذا الذي لا يهتز مطلقاً . هذا الذي لا يرفع رأسه عن أتفه جريدة مأجورة في المدينة ليستمع الى شاب قلق ممزق يريد أن يكلم الرجل الصامت عن كل المصائب ، كل الأزمات ، كل التناقضات التي تقطع أنياط وجدانه .. هو والألوف من الشباب الذين كانوا يؤمنون بهذا الرجل الضئيل الحجم القابع وراء مكتب مغبر يقضي الساعات بالبحث عن شيء لن يجده قط في أكوام الصحف التي تتحدث عن كل شيء إلا عن مأساة هذا الشاب .. الشاب الثائر وقد تآمرت على ثورته ألاعيب السياسة في بلاده . الألاعيب التي كان يفضحها ذاك الرجل الصامت . وأما اليوم فقد نقلها وسمح أن تنتقل الى هذا المكتب نفسه .. ومن ثم الى وجدان كل شاب علمه (الصامت) يوم كان يتكلم أن يثور وأن

يظل على الثورة وعلى النبل العربي وعلى الحقيقة الصريحة البسيطة .

إنه الآن لا يملك تجاه ذلك الشاب المتأنق الثائر إلا الصمت والإطراق والبحث في الأوراق السوداء . لا ينظر اليه ، لا يبالي بثورته ، وقد يتأفف ، ثم يهز رأسه أخيراً ليقول كلمتين فقط : — انك تضخم المشكلة . !

ويدخل عليه في ليلة أخرى ليقول له :

— أستاذ ! إن بلداً من مئة ألف عربي نسفها الفرنسيون .. هي (أقيليم) قرب مدينة الجزائر .. إن كوم الصحف لم تعلمك بهذا ، لأنها لا تريد أن يسمع أحد من عرب المشرق أصوات الأحجار التي تتساقط على رؤوس العرب في المغرب .. إننا لا نجسر حتى على نقل أخبار المذابح والمجازر .

ويقول الرجل الصامت وهو يحملق في الأوراق السوداء :

— إذن ، إعمل أنت على نقل هذه الأخبار .

أنا .. ومن أنا !.. وأخرج لأعدو في الشوارع المضاءة كأنها في عيد دائم.. وهناك أمشي بين أصدقائي وانا أصرخ تارة ، وأتمزق تارة أخرى وأصمت وأطرق وتلفني كلمة تطول كالأفعى .. وتلتف حول قلبي : حذار إنك تضخم المشكلة ! ..

ولماذا لا أتلهى بمشكلة الوزارة : من يؤلفها ، ومن يعارضها ومن يختفي اوراء كل صنم فيها من مكاتب سرية واتفاقات مبحوحة ، وإشارات دبلوماسية وأحاج سياسية لا أفهمها ؟ ولماذا لا أبحث عن المبررات التي تجعلني أقنع وأقنع الآخرين بأن الوزارات القومية يمكن أن تجمع الأبالسة والملائكة .. أليس كلهم من عالم واحد ؟ .. من أمة واحدة ؟ .. لماذا لا أفهم أنا أخطط السياسية العظيمة ؟ لماذا ينغلق عقلي أمام ذكاء الرجال العظام الذين يقودون الأمم ! !

وفي الشوارع المضاءة جيداً أجتر بلهبي . وينظر الي أصدقائي بإشفاق واحترام وحسد . إنهم يقولون : الغبي ! ولماذا يحرق دمه الى هذه الدرجة .. كأنه هو لأمة ، هو الضحية .. فخار يكسر بعضه !

ألم يزدحم مكتب الحزب بالأعضاء من كل طرف ، ممن لم يرهم النضال الحقيقي مرة ؟ أليس هناك وزراء للحزب؟ فليقدموا إذن ولاءهم . وبعد فليعملوا على استرداد أثمان (نضالهم) .. لقد جاء وقت النعيم .. !

ذلك الرجل الصامت .. أعلم أنه سيتكلم يوماً ما ، ولقد جئت الى هنا لأجعله يتكلم . إنه وحده لا يجرؤ أكبر زيف أن ينظر الى عينيه لحظة .. إذا ما رفع رأسه قليلا عن كوم الأوراق السوداء .

إنه الأمل ، وهو يعرف نفسه . وأعتقد أنه لن يعبأ بي . إنه رصين الى درجة مخيفة . إنه مخيف ، وإني أتحداه أن يكون مخيفاً . !

* * *

وربت ابن سلمان على كتفي مرة ثانية و همس كي لا يسمعه أحد غيري :

— أأنت نائم يا زياد؟. إنك تهذر ، وجسمك كله كأن حمى عنيفة تنتابه .. أنظر ، إنك ترتجف ، وتنضح عرقاً . ألا اعتدل.قم يا اخي ودعك من دمشق .. وممن هناك .. لقد سمعنا كلاماً كثيراً منك.هدئ نفسك ، فالمهمة قريبة .. لقد نسفوا الحي الغربي كذلك..ولم يبق إلا أن يتوغلوا الى قلب البلدة..وعندئذ...

ولكن دمشق لا تكف عن ملاحقتي . لقد أتت مرة (عائدة) خطيبتي مرتدية آخر ثوب فاخر أهديتها إياه . وكانت جميلة جذابة ينهل جمالها من عل كشلال نور معطر . وابرزت لي بطاقة بيضاء فخمة . وقالت ان الجمعية تدعونا لحضور حفلة خطابية على شرف الجزائر . ودارت أمامي بكل ما فيها من روعة وأناقة — وقالت :

— ترى أأبدو لائقة ؟. لاريب أنه سيكون هناك حفل جامع . إن صديقاتي يحسدنني لأنني فزت بخطيب له ذوق عال مرهف يعرف كيف ينتخب لي ألوان ثيابي وطراز خياطتها .. أولست شاعراً يا زياد ؟ .. أواه .. هل أضايقك.. وفضلا عن ذلك سيكون هناك خطباء كبار .. ستعجب حتماً ببلاغتهم وستصفق لهم .. وسيكون هناك شاعر كذلك .. يقال انه أعد ملحمة عارمة سيخلدها أدب الثورة .

وعندما ما رفضت متعللا بمشغلة ، رمقتني عائدة بنظرة محتقرة قائلة وهي تنسحب الى الخارج :

— كم أنا حمقاء .. لقد كنت أعرف دائماً أنك تنفر من الحياة الإجتماعية. لكأنك ولدت في مغارة . سأذهب وحدي .. والعيب سيلحقك وحدك .. أيها البطل .. بطل العزلة والفراغ .. !

وفكرت كيف أن بعض المجلات الرسمية طلبت مني أسوة بغيري من الكتاب أن أكتب عن الجزائر .. إنهم يدفعون خمسين ليرة . وتذكرت أحد أصدقائي .. من الذين أصابتهم حمى الأدب الملتزم .فما أن حشر مرة في وريقات ، كلمات عربية ونضالية ، مقلداً أحد الكتاب الأصيلين في هذا الميدان ، حتى نشرتها له على انها قصة..احدى المجلات الكبرى.ثم راح من أسبوع الى آخر يرتزق ، في مجلة أسبوعية تدفع أجور الكلام ، بالشعارات ، او يبحث من مقال لآخر عن موضوع يستهلك فيه جزءاً من محفوظاته وجزءاً من طاقته القومية المستعارة.

إن وجه هذا الأنسان يصفعني الآن . الوجه العصابي ، والنظرة الجانبية المريضة بالشك والتوجس . لقد كان ينشر خفية عن أصدقائه،وعندما يبرز مقال له يتابع عيونهم : ترى كيف سيقنعون به .لكم تربى على أن يطلب من الآخرين ، كما يطلب من الفتيات المشوهات،الإعجاب الأبله والنظرة المسحوقة. كان يريد من الناس أن يحفظوا له كرامته . أوليس جديراً بالاحترام . ألم يكذب مرة على نفسه بأنه أديب ثم صدق كذبته .. ولماذا لا يصدقه الآخرون!

* * *

وكانت متاجرة أخرى بالجزائر :

لم تنر الشمس مرة مثلما أنارت ذلك اليوم ، حتى كأنها انقلبت بنورها الى جحيم من اللظى تسقطه على هؤلاء الذين يمرون في الشارع الرئيسي ،ويحرقون فيكذبون تحت سطوعها الصاعق .. هذه الحجوم المعلبة من الرأس المحنط بالعمامة الى الجسم المستطيل تحت الجبة .هذه المظاهر من اللحى والمسابح والعرق والعمائم وصراخ الوجه والتكبير المزيف .وقد جروا وراءهم الأطفال والصبية يحيون شهداء أرض الدم ، ويدعون على الكفار . ويستمطرون اللعنات على الزنادقة .

كنت أرقبهم وهم يمرون امامي ، والقيء يجيش بمعدتي. كانوا جحافل من الجبب واللحي والصراخ الهستيري .وكان على رصيف آخر مصورون أميركيون يلتقطون بضاعة جديدة لليهود وللغرب .

وأما الناس الآخرون فقد كانوا يمرون عابرين ، كأن جهدهم ألا تميع نفوسهم أكثر .

وكان الى قربي رجل حقيقي..ينظر الى الجحفل المتسخ بشعر اللحى وعرق الجبب . كان يقول بلهجة متشنجة :

— أترى إليهم..إنهم يمثلون مسرحية وضعت في مكاتب المعلومات الأجنبية. ماذا تحس تلقاءهم ؟ أليس بالقيء ؟ . إذن هذا هو ما أرادته هذه المكاتب ، أوكار الخفافيش ، أن نتقزز منهم ومما يصرخون.. أن نسب .. حتى الجزائر .

لكي تفقد يا صديقي ، الشعارات ، أحق الشعارات وأصدقها ،خصبها وقوتها .. فليرددها الشيطان نفسه .! وبعدئذ ستكفل صم الجمهور الى الأبد!

* * *

ويبدو أنني ما زلت أرتعد وأرتجف عندما نبهني ثانية ابن سلمان الى نفسي . ولعله وجد أحسن طريقة لابتعد فيها عن أخيلتي المريضة، أن ينتزعني من صمت

الانتظار ، وأن يحدثني هو ، لا أن اظل أحدث نفسي :

– أستاذ زياد .. لماذا تبتعد عنا هكذا ؟ إنني أخشى أن تبقى على هذه الحالة حتى دنو اللحظة المرتقبة .

فأجابه زياد وهو مازال يوجه الى الجهة المعاكسة :

– ماذا تريدني أن اقول ؟. كنت أتمنى لو أن هذه الثورة كانت في كل مكان.

– ولكنكم لا تعانون ما نعاني نحن هنا..

– هذا صحيح .. إن عدوكم سافر عن وجهه..وأما نحن فلا نعرف مجرد ملامح عدونا..! إن له أحياناً سمرة وجوهنا ولغتنا وزينا .. ليس هناك خط بيننا وبينه .. لقد سموه بكلمتين غامضتين : الاستعمار والاستغلال .. وهكذا أخفوه الى الأبد .. إننا نفتقر الى الإشارة الواضحة . لا يجرؤ أحد أن يمد بأصبعه ويقول (هذا) .. لقد اختفت يا صديقي من لغتنا الدارجة أسماء الإشارة التي توجه نحو الأنسان ، وبقيت توجه الى الأشياء فقط .. وكل الضمائر قد عنكبت عليها كلمة (هو) ..

إن لديكم ههنا جبهة مكشوفة. تعرفون من تحاربون وتستطيعون أن تعينوا لحظة المعركة ومكانها .. إنني أسألك أنت مثلا كم معركة خضت.. وكم صدراً أعددت فيه رمحك ! ؟

وكان ابن سلمان قد أجفله السؤال فقال بارتباك :

– الحق إنني ظمآن مثلك الى معركة حقيقية ، معركة فاصلة .. إن زميلنا الفلسطيني قد سنحت له مثل هذه الفرصة مرات عديدة .. تصور أنه القى قنبلة على مقهى فرنسي مزدحم فقضى على أكثر من مئة جندي فيه دفعة واحدة .. وفي مهمة أخرى نسف هو وعشرة من رجاله قطاراً حربياً بكامله ..

وحينئذ تدخل الآخر بالجانب الثاني من ابن سلمان قائلا بصوت متهدج :

– كيف تنسى نفسك يا ابن سلمان .. لا تصدقه يا أستاذ ، هل تريدني أن أعدد بطولاتك ؟ أعرف أنك تنفر من ذلك !

فأجاب ابن سلمان برصانة :

– ليس المهم أن يعرف عني اوعنك..أو عنا نحن عرب الجزائر البطولات والمفاخر .. ولكني أحاول فقط أن أشعره أنه هو أيضاً وكل العرب الآخرين يمكنهم أن تكون لهم مثل بطولاتنا ..ولنقل له اننا ارتبكنا كثيراً قبل أن نفتح جبهتنا ، وأن الهرطقة تدخلت في أنظمتنا وعوقتنا سنين طويلة . لقد كانت مصيبتنا دائماً أننا نطلب أنصاف الرجال وأنصاف الحلول وأنصاف المبادئ.. وأما اليوم فهذه حربنا وليس لها أي أسم آخر غير أنها حرب وتحرير . إننا نفتح للعرب طريقاً جديدة .. والمستقبل هو الذي سيبرهن على ذلك . والإنسانية في قرارة ضميرنا تقرنا كلها على أسلوبنا الحاسم الجديد هذا ..

انك تذكر ولا شك خبر الجندي الفرنسي الذي هرب بسيارة ذخيرة الى المواقع العربية . لقد التقيت بسيارته وهو يجتاز الصحراء فتبعته بسيارة الجيب التي كنت أمتطيها . وشعرت بعد ما يقرب من ساعة أن الفرنسي يضل طريقه. حتى توقف أخيراً عن المسير . وعندها شهرت عليه سلاحي فلم يفاجأ بل ابتسم وصرخ واندفع نحوي وهو يقول :

– كنت أخشى أن اموت في الصحراء عطشاً قبل أن أوصل هذه السيارة اليكم

ولم يكن ثمة داع للشك ،فقد كان الصدق والبراءة ينهلان من وجه الشاب الجندي الاحتياطي . وخلال الطريق كان يحدثني عن كل شيء . عن قريته وكيف انتزعته الشرطة العسكرية من حقله وقالت له إن داعي الوطن يدعوك لحمل السلاح والقتال في الجزائر .

« لقد كان أبي يا سيدي أحد الرجال الذين قاتلوا المحتل النازي في صفوف (المقاومة السرية) حتى قبض عليه النازيون وأعدموه . وقال لي قبل إعدامه بلحظات : لا تنس أن أباك مات لأجل الدفاع عن الحرية والإنسان المستعبد ..»

وتابع ابن سلمان حديثه : إن هذا الشاب المخلص يعمل اليوم في وحداتنا .. ومن الغريب أن عشرات مثله يختلطون مع جنودنا ويحاربون في صفوفهم . ليس أوضح من قضيتنا يا صديقي ..فلا حاجة لأي عربي في أي مكان من وطننا الكبير أن يستغل ثورتنا في المساومات السياسية ..

ولم يستطع الآخر أن يضبط أعصابه أكثر فاندفع قائلا :

– ان ابن سلمان هذا قد تحدث عن كل الناس ولم يخبرك بحرف واحد عن نفسه .. إسمع ! أنا الذي سأحدثك عن أخيه الذي قتله بيده هو . لقد كان لابن سلمان أخ أصغر منه سناً يعمل موظفاً في دوائر الفرنسيين . وعندما اعلنت حرب التحرير لم يستقل أخوه من الوظيفة وكان يناقش ابن سلمان بضرورة البقاء في الوظيفة للتجسس على الفرنسيين . وكان خلال كلامه يلمح الى طيب عنصر الشعب الفرنسي والى إمكان استمالة صداقته عن طريق آخر غير العنف والحرب .

وفي إحدى الليالي كان على ابن سلمان أن يحرق مزرعة يلجأ اليها فصيل من الجنود الافرنسيين . وشعر أخوه بنية ابن سلمان فحاول أن يسبقه وأن يصل الى المزرعة وينذر ابنة صاحبها ويخرجها من هناك .. فلقد كانت بينهما علاقة حب . ولكن ابن سلمان قدم موعد الغارة لما علم بخيانة أخيه وهاجم المزرعة وأحرقها بمن فيها .. جميعاً . كانت المهمة واضحة : يجب حرق المزرعة كلها . ولن يستثنى منها ابنة صاحب المزرعة او عشيقها .. !

ونظرت نظرة جديدة الى وجه ابن سلمان .. كان وجه جندي صريح . وقفز سؤال الى لساني ، لكنني أخرسته في اللحظة الأخيرة . كلا لسيت هذه قسوة . إن من يقبل أن ينقذ أخاه فربما قبل يوماً ما أن ينقذ نفسه وأن ينسى قضيته . إن الأوامر لا تحرف .

كل شيء واضح لديهم . ولا معنى لأي التباس أو غموض . هذا ما كنت اردده على نفسي دائماً منذ أن قابلت أول رجل منهم.إنهم يدركون ما يفعلون . ولقد شهدت الشباب والأزواج يفدون على المعسكرات ، بينما نساؤهم وأطفالهم تتجه الى الجبال بعتاد قليل وزاد أقل .

لقد كانت دمشق تعيش على ما يرام عندما كان زهرة شبابها يرابطون على هضاب الحدود ينتظرون بين لحظة وأخرى هجوم العدو الخبيث . كان النقاش في البرلمان كما هو . والصحف تردد اخبارها . والمحاضرات تتنافس على مشاهير الرجال . والأيدي تهتز بالتصفيق .. لكأن كل شيء تمثيلية رهيبة ، كذبة هائلة . لا أحد يصدق ، ولا أحد يستنكر . وكل شيء في مكانه الطبيعي .

وكانت شوارع المدينة تودي بي من واحد الى آخر . كأني كائن غريب لا يستطيع أن يؤويه ملجأ ، وأن تضمه زاوية مظلمة من زوايا المدينة الهائلة المتجهمة .

إن وجه الرجل الصامت ، وبطاقات المحاضرات والحفلات القومية في أيدي خطيبتي ، والمهرجين في تظاهرات الشوارع .. والمثقفين في المقاهي ، وإعلانات المجازر الكبرى ، ولوحات الرسامين ، وأخبار العالم.. والسويداء في أعماقي ورجفة الاعتراف بالاحتيال والكذب . تلك كانت قصتي فكيف يمكن أن أحدثهم بها هنا ؟ إنها ليست شيئاً يصلح لأن يكون له عقدة حادثة ، أو صورة وصف ، او تتابع سرد . إنها ليس لها من الفن إلا كونها مجرد نزق ، نزق إنسان اختلطت عليه المناظر وامتزجت ، في عيونه ، نجوم السماء بوصول الشتاء الأرضي .

وأستطعت أن أسبك جملة وأسقطها من بين شفتي المزقتين :

– ابن سلمان .. أتعتبر أخاك خائناً . ؟

وأجاب مباشرة :

– لقد مات الآن .. هذا هو حكمه .

واستطرد قائلا بعد لحظات من الصمت : إن كلمة خائن أو غيرها عبارة عن شيء كالحجر ، ليس له حقيقة إلا عندما تراه أمامك .. وعندها لن تناقش مطلقاً . وليس لك إلا أن تعمل عملا واحداً لا ثاني له .. إن أخي استشفى فتاته الفرنسية من حكم الموت ، فلم تستشنه نارنا .. لقد صار حجراً من أحجار المزرعة ..

ودفعة واحدة جذبتني دمشق من جديد الى إحدى قاعاتها المزخرفة بالفن العربي ، من أيام العصور الشعوبية . وتحت القباب العالية الرهيبة كانت قامات يوترها الغضب . وكانت أيد معروقة طويلة تمتد بسباباتها ، والأفواه خلفها تتقاذف بحناجرها كلمات سوداء حاسمة : أنت انكليزي . أنت بدوي تتاجر بالحشيش . اخرس أيها الخائن .. قل ماذا قبضت من مكتب المعلومات. وأنت اشبعتنا بضاعة العروبة . ماذا تقولون .. الاتحاد مع مصر . ليس هذا إلا دعاية سياسية تاجروا بها في الشوارع . إصمت يا داعية الإنكليز واليهود . ألم يأمر وزيركم بشحن القمح الى جنود فرنسا في الجزائر ؟.

ويصدر الأمر من إنسان رزين يجلس على أعلى مقعد .. الى من يجلسون في الشرفات وفي ايديهم الأوراق والأقلام . وفي شفاهم الابتسامات الشامتة : أترون إنهم يفضحون أنفسهم .. ليسوا أشرف منا ..هاها..يصدر الأمر ألا يكتبوا شيئاً عما يجري هنا .. ليس من اللائق .. ليس من اللائق قط . !

وبعد .. بعد قليل في الردهات الخارجية .. خلف الأضواء ، في الزوايا العنكبوتية تتلامس الرؤوس ، وتفح الشفاه ، وتبرق العيون ، وتتصافح الأيدي . سيكون لكم وزير هنا وأنتم ستأخذون وزارة كذا . وسنترك لجماعة فلان وزارة كذا .. هكذا يعمر العالم العربي . ويطرد اليهود من فلسطين . وتلغى الارتباطات مع فرانسا الثقافية والاقتصادية . وتسلح الجزائر .. وتتحقق الوحدة . !

لقد قال ابن سلمان : إن كلمة خائن كالحجر يمكنك أن تراها كلها وعندئذ لن تناقش ولن يكون لك إلا عمل واحد. عمل واحد. وفي مدينتي ليس هذا العمل من السياسة ، وليس من اللباقة واللياقة . هناك كل شيء على ما يرام . ما عدا بضعة شباب يذرعون الشوارع بزق وتتصاعد من أجسامهم النحيلة حركات شوهاء هستيرية ، وتتبخر على أفواههم في برد الشتاء أسماء الحقيقة وصراخ النجدة الوحشي .

* * *

حتى أنا لايثق بي ابن سلمان والممددون الآخرون . ألا ترى يا زياد أنه يلح على الخيانة . لقد قتل أخاه .. ولكنه لطيف الى حد الإخافة . إنه فوق رأسك . يقبض على دماغك بنظرة ناعمة .. صاعقة .. واحدة . ويلمس كتفك بيده التي تعرف تماماً كيف تقبض على الأعناق وعلى لسان البنادق والمسدسات .

والآخرون .. الذين لا أرى منهم إلا سواداً مكتلاً كثيفاً ، يؤلفون هنا .. وعلى مسرح الانتظار المصلوب هذه الجوقة السرية، كما في مسرحيات عطيل أو هملت أو مكبث . جوقة خافية ، ولكنها ترزح فوق جو المسرح كأنها ضمير الوجود الحازم . إنها شيء أساسي في حجرتنا هذه . إنها تشبه جوقة أعظم ، أبعد وأقرب ، أشد إخافة وإحاطة بكل من يريد أن يبرز على المسرح وأن يتحرك ، وأن يلقي ، وأن يكون وحيداً تحت الأضواء . جوقة تتألف من الناس في الشوارع ، وحجر البيوت المظللة ، وناس الحقول ، وجميع البسطاء التافهين الضائعين في أرض الأمة والعالم .

لقد أخذت الحجرة تستنير شيئاً فشيئاً ، فالتفت الى ابن سلمان أرى وجهه

من المجلة

ترجو ادارة « الآداب » ان توجه انظار القراء والمشتركين والوكلاء الى ان رقم صندوق بريد المجلة قد أصبح ٤١٢٣ وان رقم التلفون ٣٢٨٣٢ . اما الادارة فمركزها : شارع سوريا (الخندق الغميق) بناية ابراهيم الأسمر.

« الآداب »

واضحاً لأول مرة .. قال

– إنهم يحرقون .. والنار ليست بعيدة ..

وفجأة انتفضنا جميعاً لطرق على الباب . فربض ابن سلمان قليلا ثم قام وفتح الباب مواربة. واندفع كائن الى الداخل كعاصفة حبيسة في قمقم شيطان .... وتفحصتها : لقد كانت عاصفة مجمعة من سمرة وحمرة في الوجه تتقد تحت الرمال والغبار . وكانت عاصفة من السواد الصافي في العينين الكبيرتين ، كعيني الليل الذي يرى كل شيء يضمه ، ويظلله بالحنو المظلم والدفء الرهيب اللانهائي .

وعاصفة في الشعر المجمع من النار الليلية ، ذات الذؤابات المتمردة ، كأنها نوافير من جهنم . كانت امرأة طويلة القامة تخلع عنها ثوب الفلاحين لتبدو تحته وقد ارتدت القميص والبنطال .. الزي العسكري الكامل البسيط . وتمنطقت بحزام الرصاص والمسدس والسكين المفلطحة اللامعة .

انتحت بأبن سلمان زاوية وتحدثت معه قليلا بخفوت. فاستدار هذا وتقدم مني وقال بلهجة حاسمة :

– الجندي زياد ، لقد تقرر أن تتقهقر الى المعسكرات ، والجندية عائشة ستحل مكانك .. هيا اسرع قبل حلول الوقت .

أما أنا فلم أتحرك . وحاولت أن أناقش .ولكني توقفت .إنني أعلم ما معنى الأوامر هنا . وما معنى أن يقول(لقد تقرر). ولم يكن أمامي إلا حل واحد: الكذب . فقلت بضعف مصطنع :

– أنت تعلم أنني مصاب بحمى منذ ساعات..انني خائر القوى تماماً.والأفضل أن أقضي هنا وأنا أدافع عن نفسي ، بدل أن أضطر الى المسير مسافات طويلة بين الأنقاض حيث يختبيء جرذان العدو .. أتريد أن أموت وأنا أتقهقر ؟ .

وكنت أرنو الى عائشة . ولكن هذه لم يظهر عليها أي ملامح جديدة غير تلك التي شدهتني وهي تلج علينا مكمننا . إنها تنظر الي حسب العادة .. كحجر .

وأيقنت أن ابن سلمان قد خالف الأوامر هذه المرة . إنه يعلم أنني أكذب . ولكن عذري كان شرعياً مقبولا . وبعد ، شرعت عائشة تنقل الينا البقية الأخيرة من الخطة .. التي جهلناها حتى الآن . قالت بصوت خافت ملىء :

– إن المدينة كلها دمرت تقريباً ، ولم يبق إلا هذا الحي الداخلي . إنهم سيضطرون الآن الى أن يتركوا خطوطهم المحيطة بالبلدة ، ليصلوا الى هنا . فالمدافع ستخطىء الحي بعد أن حجبته هياكل الأحياء الأخرى والحطام . إنهم سينسفون حينا هذا بيتاً فبيتاً بالديناميت ، ولهذا سيكونون قريبين أكثر من اللازم .. وعندها سننقض عليهم بينما ستكون فرقة أخرى منا تطوق البلدة من خارج .

وارتمت عائشة الى جانبي ، وجلست جلستنا المعهودة ، قائمة الزاوية بين الجدران والأرض .

وهناك .. أواه بل هنا لصقي، سمحت لنفسها أن تلهث أوان تتعب. وعندما لم يبق الا دقائق معدودة همست :

– لماذا فعلت ذلك ؟ !

– أتذكر ؟ لقد اتفقنا عند صخرة الغروب أن القرابة دموية بين الحب والموت .. ثم انه .. يجب أن نكون .. أن نكون معاً ..

– ولكنك أتيت بأمر يقذفني الى الوراء كالعادة ..

– ما كنت أعتقد أنك ستنفذه ..

– أكان امتحاناً لي ؟.

– كلا وربك يا زياد .. إنها مجرد مناسبة ، مناسبة لأن تقفز الى أمام . !

وأمر ابن سلمان فانتصبنا واقفين ، وقبض كل منا على رشيشه . ووارب الباب ابن سلمان بقدمه وقال بهدوء مخيف :

– أشعلوا فتيلة الديناميت في قاعدة البيت .. هيا !

واختلط الصراخ المهاجم والصراخ المدحور ، والديناميت ، والسقوط والانهيار .. ولمعان السكاكين ودوي الرصاص ..

ولم يقل ابن سلمان هذه المرة :

– إنهم ينسفون الحي الداخلي .. قلب المدينة . !

لقد فتحت أبواب البيوت في الزقاق الطويل واندفع مئات المناضلين في سيل من القوة والنيران والزئير . وفي نفس الوقت لعلعت ألوف البنادق من أطراف المدينة المدمرة . وحوصر الفرنسيون وصعقوا للمفاجأة . فلم يكن أذكى قائد فيهم ليتنبأ أن تكون البلدة ليست خالية من الرجال . إنهم اعتادوا أن ينسفوا القرى والبلدان على رؤوس الشيوخ والأطفال والنساء . وكانوا يجدون في ذلك متعة عجيبة . ومع أن الخوف كان يدب الرعدة في أضخم جثة بينهم وأقسى قلب حتى في القرى الخالية الا من الشيوخ والأطفال ، فان احداً منهم ما كان ليتصور قط أن يبقى المحاربون في بيوت حكم عليها بالسحق والتهديم . وفي غمار المعركة كان شاب طويل يعدو بسرعة جنونية بين الأنقاض ، وتعدو خلفه امرأة لا تألو جهداً في اللحاق به .

كان يقفز فوق الركام ، وينسل من درب الى آخر ، ومن هيكل بيت الى هيكل ثان ، كأنه يعرف الطريق. كانت تحدوه رغبة شيطانية جبارة . إنه لم يكن حراً في معركة كالمعركة هذه . لقد طلب منه أن يمحق العدو أين رآه . وأما هو فإنه يطلب نوعاً نادراً من العدو ..

لقد كان يعلم أن القيادات الفرنسية تستخدم دائماً ، في مثل غاراتها الانتقامية هذه من البيوت والشيوخ، أدلاء من حثالة العرب . وكان يعلم أن هؤلاء الأدلاء يجيئون مع القائد ، فيتربصون في أبعد نقطة خلفية من خط المعركة الأول .

كان زياد يحس أن له عند الخونة حرباً خاصة . وبينما كان يعدو عدوه المسعور ذاك ، كانت تتفتح في نفسه نشوة جياشة بالحياة والفخر ، تمده بقوة خارقة ، ما كان ليشعر بمثلها من قبل . لقد كان لقفزاته فوق الركام ، وللركام ، ولأشباح المنازل المهدمة ، ولطعم الدخان في رئتيه ، ولجحيم النيران حواليه ، كان لكل ذلك رنة السحر في نفسه .. كل شيء حقيقي الآن ، الحرب والنصر والخوف وحتى الدمار . ليس هذا حلماً . ليس هذا دعاوة وسياسة . ليس هذا منشوراً أو جريدة او مذياعاً أو خطبة أو مظاهرة ، ليس هذا نقاشاً أو جرشاً على حجر اصم. إنه الرصاص والحريق ، وارواح الرجال التي تزهق ، وخطوط الحياة الجديدة التي ترسم بالدم واللحم المهروس .

وبلغ ظاهر المدينة ولمح سيارة الجيب الحقيرة . فزحف على الأرض واتجه نحوها بعزم هائل .

وادركته عائشة ، وفهمت أخيراً قصده من هذا العدو المريب ، إنه لايقصد الخط الورائي . ولكنه خط ورائي ، مع ذلك ، هذا الذي يحاول . إنه خط ، هذه المرة ، خط العدو نفسه .

وما أن وصل الى السيارة من جنبها حتى وقع في تلك اللحظة ما لم يكن في الحسبان . فقد سمع صراخ الهجوم تطلقه امرأة مندفعة نحو السيارة من جانبها الثاني . فانشغل حراس القائد ودليله العربي بتصويب النار على عائشة وتقدموا نحوها خوف ان يكون معها آخرون .

وفي هذه اللحظة كانت عائشة تتضرج بدمها ، تجثم على صدرها وتضغطه بالتراب كأنها تريد ان تسد جروحها بالأرض وأن تطول الحياة بها ، لترى من رأسها المشرئب فوق التراب .. لترى زياد وقد انقض على من في السيارة بقنبلة يدوية أطارت شظاياها في الفضاء المشتعل ..

وشهدت عائشة كذلك قبل أن تفيض روحها ، كيف انهال الرصاص على مدرس من دمشق .. ولم يقع على الأرض إلا بعد أن أرسل لها تحية بأن رفع لها يده عالياً .. وانهار .

ومازال الرصاص يلعلع ، والرماد الناري يغلف المدينة بجو ساطع . ومن بعيد يلتحم الصياح المهاجم بالصياح المدحور ، وعويل الذئاب . لقد كان هناك كل شيء على مايرام !

دمشق

مطاع صفدي